ملف
٢

ياسر عرفات هو ذاكرتي

ياسر عبد ربه

ياسر عرفات هو ذاكرتي. قضيت ما يقارب خمسة وثلاثين عاماً بالقرب منه، شهدت خلالها صعود دوره وتراجعه ثم صعوده من جديد أكثر من مرة، وتعرفت عن قرب على أساليبه في التعامل مع أوضاع معقدة، خصوصاً أن معظم تلك الفترة أمضيناها في مناف متعددة، واجتزنا خلالها مراحل متباينة من حيث درجة صعوبتها، قبل أن ننتقل إلى المرحلة الأشد تعقيداً بعد عودتنا إلى الوطن.

هو ذاكرتي... لأن كل تجربة حياتي السياسية الماضية امتلأت به. جميع الأحداث السياسية الكبرى كان هو بطلها ولاعبها الأول، وكل تقدم إلى الأمام تحول في سياستنا الوطنية ما كان يمكن أن يتحقق بدون رعايته وكلمته الأخيرة.

وقد ارتبطت مواكبتي لكل تلك التطورات والتغيرات بتفاصيلها وحوادثها الدقيقة، وما كان يرافقها أحيانا من مفارقات مثيرة وصراعات سياسية قاسية أو دموية ارتبطت بصلتي المباشرة والوثيقة معه.

ياسر عبد ربه، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية

ولعل معظم ما تختزنه ذاكرتي من وقائع كثير منها لاذع ومرير، يتمحور حول علاقتنا بالأنظمة العربية وقادتها، و لقاءاتنا مع زعماء العالم من أقصاه إلى أدناه خلال عهدين: عهد الحرب الباردة وعهد التفرد الأميركي، وإدارة دفة حركة وطنية فلسطينية ذات تعددية فريدة بالغة التعقيد لأنها تعكس أيضا تلاوين عالمنا العربي المحيط . . . كل تلك الوقائع تتراكم عندي ويكون فيها هو النجم الأول، والممثل الدرامي الأبرز الذي يتنقل بين جميع أنواع المآسي الهائلة، والأفراح الرمزية الصغيرة التي عشناها.

ولكن قسماً خاصاً من الذاكرة يتخصص في علاقاته مع الإسرائيليين بمختلف اتجاهاتهم، منذ لقاءاته الرسمية الأولى بعد اتفاق اوسلو وحتى إحاطته بالدبابات في مقره الأخير، وما كانت تمتلئ به علاقته معهم من شد وجذب، مناورات وتكاذب، علاقة صراع يبدو في لحظة انه تراجع فيعود وترتفع وتيرته من جديد. وكان ذلك كله يتم من خلال مفاوضات مضنية طال أمدها لسنوات، وتابعها بصبر وبغيظ مكبوت، حتى انفجرت ولم يعد ممكناً استعادتها بينه وبينهم مرة أخرى.

هل كل تلك التجربة تقودني إلى استخلاص ما يمكن تسميته بالعناصر الأساسية التي كانت توجه سياسة ياسر عرفات. هل تجعلني قادراً على أن أطلق على مجموع تلك العناصر اسم نهج ياسر عرفات، بحيث يشمل ذلك النهج رؤيته الخاصة للعالم ولمستقبل وطنه؟

بداية أشعر أننا في سباق مع محاولات بدأت، وربما تتراكض أكثر فأكثر مع الزمن، وهدفها هو تنميط ياسر عرفات. هنالك من سيحاول إعادة صياغته لخدمة أهداف أيدلوجية بعيدة المدى أو أغراض سياسية مباشرة. ولا تقتصر هذه المحاولة على تجربة صاحبي وحده، فالأنبياء عندنا تعرضوا لمحاولة إعادة تركيب رسالتهم وتشذيبها بعد رحيلهم، على الرغم من أن تلك الرسالات كانت معززة بكتب مدونة لها قداسة سماوية وبأحاديث تحوي بشكل مبسط أو بالغ التعقيد، غامض غموضاً مقصوداً أو مباشراً وصريحاً، نظرتهم الشاملة للحياة ولحدود الدور الإنساني في تعديلها وصياغتها. ويسري هذا النمط من إعادة الصياغة على كثير من القادة في منطقتنا، إن لم يكن معظمهم، خصوصاً أولئك الذين أتاح لهم التاريخ مكاناً فسيحاً في رسم مسيرته.

إن إعادة صياغة الماضي من أجل تركيبه في قالب يخدم أغراض البشر الأحياء وأهدافهم المستقبلية هو تقليد إنساني مستمر. ولا ننسى أن جزءاً هاماً من الصراع الذي أقحمنا فيه منذ أكثر من قرن من الزمان، ظل يدور مع الذين مهدوا لمشروعهم الاستيطاني فوق أرضنا عبر غطاء

أيدلوجي، يقوم على إعادة تركيب الماضي السحيق لتسهيل ما يفعلونه بنا اليوم وما يسعون لمواصلة فعله في المستقبل، خاصة من خلال استكمال سلب أرضنا الوطنية التي لا أرض، ولا وطن لنا، سواها.

وإذا كانت محاولات إعادة تركيب تجربة ياسر عرفات، وإرثه السياسي، قد بدأت مباشرة بعد رحيله، لتحميله ما لم يحمله، بل وربما ما رفض، أو قاوم حمله في حياته، ولتقديمه على صورة القائد الذي يرفع راية بضعة " ثوابت" ، في وجه المتغيرات التي تحيط به ليس بهدف استيعابها وإنما لتأكيد عدم التعامل معها. ياسر عرفات المتشدد والمتطرف هو النموذج المفضل في هذه الأيام لدى أوساط طالما دأبت خلال حياته على رؤية مؤامرة تفريط أو مخطط تنازل تاريخي وراء كل موقف تكتيكي، أو خطة سياسية يتخذها. وما يمكن أن يجعل مهمة تنميط ياسر عرفات كممثل للثوابت الرافضة لرؤية التحولات الكبرى أو الصغرى، سيان، مهمة سهلة نسبياً بالقياس مع غيره من الزعماء هو ياسر عرفات نفسه. فخلافاً للأنبياء، رغم انه تمت إعادة صياغة دروس تجربتهم بعدهم، لم يترك ياسر عرفات أي أثر مكتوب يمكن اعتباره بمجمله المرجع الذي يعكس رؤيته.

ولا يمكن التعامل مع مجموعة الخطب والمقابلات السياسية، التي كانت تمليها اعتبارات تكتيكية وظرفية مؤقتة، وأحياناً اعتبارات تتصل بحدث واحد معين أو بعلاقة مع جهة أو دولة ما، على أنها مرجع صالح للحكم على موروثه السياسي، أو الفكري إن صح تسميته بذلك. كما أن مفرداته وشعاراته ظلت محدودة، يكررها دائماً ويتناوب على إعادة استعمالها وفق الحاجة، باعتبارها عناوين لرسائل سياسية علنية يوجهها إلى أعدائه أو حلفائه، وليست شعارات مطلقة مقصودة لذاتها.

ولذلك، فان ارتكاب العبث المتطرف بإرث ياسر عرفات يغري الكثيرين بسبب فقر ذلك الإرث المدون والمكتوب، إضافة إلى ضيق مساحته من الناحية الفكرية، واقتصاره على مجموعة من الآيات والشعارات الدينية أو الوطنية الحماسية. لكن ياسر عرفات الذي نعرفه كان يستعمل هذا المزيج الوطني أو الديني من المحفزات، لكي يروض مشاعر اليأس عندنا، وهي المشاعر التي تجد سنداً لها وتتوفر مبرراتها في كل تفاصيل حياتنا في كل يوم، وكل سنة، وعلى مدى عقود مديدة. كان يظن انه قادر على إغراقها في بحر من مخزون تراثي يدعو إلى التفاؤل، من خلال الركون إلى الغيبي المطلق، وعبر التمسك بوعود أتت من الأعلى لمقاومة تدهور أحوال عالمنا

السفلي على يد قوى ظالمة ذات طاقة هائلة على البطش والتنكيل. كما انه كان يستعملها، تلك الشعارات والآيات والأحاديث، عندما يحتاج إلى محاجحة موقف سياسي لآخرين يسعون إلى تغيير أو تعديل الخيار الذي قرره هو. وفي العادة كان خياره عملياً على كل حال، ويتعامل بواقعية نسبية مع الوقائع المتغيرة تاركاً المجال أمام تجربة الصواب والخطأ حتى تقرر وحدها درجة صحة خياره. ويحدث أحيانا أن يكون الأوان قد فات لتدارك النتائج السلبية الناتجة عن عدم تعديل ذلك الخيار في وقته الملائم.

١

بذلك كان ياسر عرفات براغماتياً وعملياً مثل جميع الأنبياء تقريباً، يستخدم الغيبي والسماوي لإقناع الناس بتغيير الواقع الأرضي وعدم الاستسلام أمام الصعوبات التي تعترض هذا التغيير. إن غياب الإرث النظري يجعل الأفعال وحدها هي المرجع في محاكمة تجربة ياسر عرفات، والأفعال عادة تخضع للتفسير والتأويل، بل والتحريف كذلك بسبب اختلاف زاوية النظر إليها والحكم عليها.

ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فان اعتماد التجربة العملية له كمرجع، يدفعنا إلى استخلاص أساليب " ثابتة " لديه، وليس مواقف أو آراء، وأجرؤ على القول حتى أهداف، في الغالب. وإن لجأ إلى تغيير أساليبه، أحيانا، فإن مرد ذلك ضغوط واعتبارات طاغية. وعندما تمر تلك الضغوط والاعتبارات فإنه يتراجع إلى اختيار الأساليب القديمة ذاتها من جديد، ويحرص عليها، ويدافع عن استمرارها بشكل أشد مما فعل في الماضي.

ومن بين ابرز الأساليب المحببة لديه هو ميله الدائم إلى معالجة الخلافات والتناقضات السياسية عبر الحوار الذي يصبح وسيلة للتسويف، وللابتعاد عن اتخاذ قرار يقود إلى التمحور والانقسام. وقد يستغرب كثيرون كيف يجمع بين الرغبة في الحوار وبين النزعة إلى الإمساك بناصية القرار السياسي والتفرد في القيادة. لكن الحوار لا يقود حتماً إلى نتيجته المنطقية وهو القرار.

كان يحب التوافق، الذي ينبغي أن يتحقق بشكل قريب للغاية إن لم يكن متطابقاً مع موقفه. وإن لم يحصل ذلك فان الحوار سوف يؤجل، أو انه سوف يقوم بتلخيصه في نهاية كل اجتماع بطريقة تفتح باباً أو نافذة لتسوق حتماً باتجاه موقفه هو. ومع الحوار كان يحب الكتابة، أو بشكل

أدق تدوين محضر الاجتماع. وغيره هو لن يعرف أحد من المخلوقات الأرضية كيف تم تلخيص نتائج الحوار الذي جرى على تلك الشاكلة، التي يصادف كثيراً أنها قريبة للغاية من موقفه وبعيدة تماماً عن رأي معظم المتحدثين. لكنه يحتفظ بورقة وقع عليها هو وشاهد آخر من الحاضرين، أو يحتفظ بدفتر ملاحظاته هو الذي لخص فيه الوقائع. وهو مستعد لمتابعة الحوار لإثبات أن الخلاصة والنتيجة هما بالضبط ما ورد في مذكراته وأوراقه. ولم لا يكون دفتره الشخصي بمثابة الوثيقة التي لا ترد.

إن هذه الأساليب لا تعني انه كان يرفض الحوار الجاد، أو يستخف به. هناك أشخاص كان ينصت إليهم باهتمام شديد، ربما ليعرف موقف الجهات أو الدول التي " تؤثر" عليهم. وهنالك من كان يتمتع بطاقة فكرية أو بمصدر معلومات هام، كان يحتاج إلى كل منهما حتى يصوغ قراره الذي لم يكتمل في ذهنه بعد، أو لعله واضح الأبعاد قليلاً. ويرغب في الحصول على إثبات يؤكد صوابه في نفسه. ولكنه، ايضاً، كان يقاطع ويعطل ويتدخل بشكل غير مشروع في مجرى الحوار عندما يرى انه يتجه نحو التعاكس التام مع موقفه. هذه بعض أساليب من الثوابت التي دأب عليها، ولكنها وللحق تتيح المجال أمام أكثر الآراء تطرفا لممارسة حرية العرض والتعبير على الأقل.

وكثيرا ما كان يستنكر تسريب معلومات، أو الإدلاء، علنا، بآراء خاصة قبل اتخاذ القرار في قضية ما.. ولكنه استنكار غير حازم يسمح باستمرار هذا التقليد في التعبير الفوضوي عن الآراء علنا من ناحية، وفي استمرار "استنكار" هذا الفعل، من ناحية أخرى في دورة متواصلة و دائمة.. تصريحات، استنكار، تصريحات!!!

ولكنني عندما أدافع عنه ضد تهمة "الثوابت"، لا اعني، أبدا، انه كان بلا مواقف وتوجهات يحميها ويدافع عنها، بل ويقاتل أحيانا بلا هوادة في سبيلها، وذلك هو المبرر الأساسي الذي جعل منه قائدا تاريخيا، على كل حال. كان أبو عمار يريد حتما أن يحقق لشعبه الحرية والاستقلال وهي بديهية من الضروري التأكيد عليها عند الحديث عن مزايا شخصه. و مع مرور سنوات النضال الذي يقوده هو، ونمو رصيده الشعبي، و العالمي، استنادا إلى انجازاته ومآثره، وإلى شخصية خاصة، واستثنائية، يتمتع بها، فإن التمايز بين شخصه وبين أهداف شعبه كان ينمحي لصالح التماهي التام. أن تصبح الدولة دولته، والشعب شعبه، وان يكون هو الوطن، والاستقلال، لم

تعد نزعات مستنكرة أو مثيرة للاستغراب، بل اعتاد عليها، وقبلها الناس بالتدريج حتى أصبحت بمثابة مسلمات أقوى من الوقائع.

إن كل الشعارات، والرموز، وطرق التعبير، والتعامل مع الناس والكلمات، أو الشعارات المأثورة التي دأب على استعمالها، إضافة إلى القصص القديمة والحديثة التي كان يرويها عن نفسه وعن تجاربه، بل وعن تاريخ شعبه، والتي جمعها ونحتها بأسلوب خاص لم يسبقه إليه أحد ولن يتبعه أحد بعده بالتأكيد، إضافة إلى طريقة ارتداء كوفيته، وإلى لكنته المحببة، والخاصة به ـ لكونها مزيجاً من مصرية أصيلة وفلسطينية مختلطة حديثة تبدو وكأنها بدوية أحيانا ـ كل ذلك جعل منه شخصية خاصة غير قابلة للتقليد أو التكرار، أو حتى الوراثة. لقد شهدت زعماء وقادة عربا وفلسطينيين، يتمتعون بتلك المسماة شخصية " كارزمية " وكان العشرات والمئات من القادة المقربين إليهم، أو حتى من المعجبين البعيدين يقلدونهم في طريقة حديثهم، وتدخينهم، وقصة شعرهم وملبسهم، ما عدا ياسر عرفات، فهو غير قابل للتقليد، أبدا، إلا إذا أراد أحد أن يجعل من نفسه هدفاً لمقارنة ساخرة. . . إلى أبعد حدود السخرية.

جدية ياسر عرفات، وانفعاله، وصراخه، وتألمه، وتعبيره العاطفي التلقائي والمحسوب بدقة عن نفسه، لا يستطيع أحد غيره القيام به. وهو لذلك حصل على مكانه المميز والمتفرد عند الناس إضافة إلى صفة البطل الدائمة والحقيقية التي حصل عليها من خلال أحداث ومواقف، وعبر خوض معارك ما كان بمقدور أحد أن يخوضها سواه.

٢

هذا ما جعل ياسر عرفات، يحافظ، دائما، وحتى في أدق اللحظات وأصعبها خلال سجنه الأخير في المقاطعة، على خفة دم، وسرعة بديهة، وتعليقات لاذعة ودية ومحببة، كلها مصرية التأثير والهوى كما كان يحب دائماً أن يقول عن نفسه، وهذا ما يجعل وراثته بما كان عليه، واستخدام صلاحياته، ومسؤولياته الفردية التي تمتع بها، أمرا مستحيلاً تماماً على من سوف يأتي بعده. فلا بد أن يكون ذلك القادم قادراً على بناء شخصية مماثلة بتفاصيلها الكاملة، وبكل التناقضات العسيرة والمتكاملة التي تبدو أنها لا يمكن أن تجتمع إلا فيه ومن خلاله.

وهنالك من يقول إن واحدة من " ثوابت " ياسر عرفات هي كراهيته لدور المؤسسة، إلا عندما

تقوم تلك المؤسسة بتعزيز دوره وإبراز قيادته وإحاطتها بالحماية في مواجهة أية عواصف داخلية أو خارجية. لا يمكن القول بالتأكيد انه كان من أنصار المؤسسة المخلصين، أو من الذين يعشقون القوانين والأنظمة، خاصة إذا قيدت قدرته على القيام بمبادرة سياسية أو حدت من إمكانيته على معالجة أمر، ومشروع، يرى فيه أولوية خاصة.

لكن ياسر عرفات ساهم بدور خاص في إنشاء أهم المؤسسات في تاريخنا الحديث، مؤسسات فتح، ومؤسسات منظمة التحرير، وإن كان قد سعى وبنجاح متفاوت من أجل ردع أية تأثيرات داخلية أو خارجية على تلك المؤسسات يمكن أن تقود إلى إضعاف دوره أو الحد منه. وقد علمته التجارب كيف يقاوم بفعالية محاولات التآمر على قيادته أو الانشقاق عنها، وسط ظروف بالغة الصعوبة كان يؤسس فيها ثم يقود ويبني حركة وطنية لاجئة، وبالتالي معرضة لجميع أنواع الضغوط والتأثير من قبل الجهات المضيفة لها، خصوصاً تلك التي استمرأت لعبة استعمال القضية المقدسة كورقة سياسية لحماية مصالح طبقاتها الحاكمة.

لقد حدث التوحد بين شخصه ومع مرور الزمان وبين الدفاع عن استقلال الحركة الوطنية الفلسطينية. بدأ مكافحاً في سبيل هذا الاستقلال وتطور إلى رمز له، ثم تحول إلى ضمانة أساسية لحمايته. وتلك المؤسسات التي ساهم في بنائها كانت تصبح، أحيانا، وبسبب التأثير الخارجي عليها ـ لكونها مؤسسات أقيمت في " الخارج " أصلاً ـ عبئاً وخطراً إن لم يتم تحصينها بموقف وطني مستقل، وبتكوين قيادي متميز مع تأمين الحماية لدورها من الأنواء التي تعصف بالمؤسسة والقادمة من خارجها، ومن انعكاس تلك الأنواء عليها داخلياً.

وهكذا من يستطيع أن يتحدى الاستنتاج الذي أكدته التجارب المريرة بأن قيادة ياسر عرفات المتفردة هي ضمانة في ظل بعدها عن الأرض والشعب المحتل، أو المبعثر في بلدان ومناف شاسعة، لحماية استقلال الحركة الوطنية الذي هو الخطوة الأولى نحو استقلال الوطن. ومن يستطيع إطلاق تجربة ديمقراطية نموذجية في المنفى، أو توفير شروط استمرارها في عالم محيط أهم صفاته أنه غير ديمقراطي. لقد أصبح التفكير في ذلك ترفاً إذا ما قورن بالمهمة الأكبر وهي حماية الاستقلال.

ولا يمكن أن يكون هذا التحديد للأولويات، إلا متلاقياً ومنسجماً مع هوى ياسر عرفات الخاص في تأكيد دور قيادته بدون أي انتقاص من صلاحياته المطلقة كما رسمها لنفسه وكما كان يسعى لتوسيعها بالتدريج وحيثما لاحت الفرصة لذلك. كان يريد موقعاً متكافئاً مع نظرائه من

الزعماء العرب ومع زعماء آسيا، وإفريقيا، والعالم الاشتراكي، فلماذا يكون شاذاً عنهم، أو أدنى منهم دوراً وصلاحيات، خصوصاً انه بخصاله المتميزة وبقدرته الفائقة على الحضور الدائم والحركة التي لا تكل، كان يملأ فراغ غياب دولة حقيقية ووطن سليب أو محتل ومستباح. كانت الفردية عنده حاجة وطنية إلى جانب كونها نزعة خاصة، مثلها مثل استقلال الحركة الوطنية.

أي أن كل الأمور كانت تتجه نحو التماهي بين شخصه وبين حاجات الوطن، وان يكون هو بدوره المتزايد والمتسع الملجأ لشعب ولحركة في غياب وطن.

تأسس ذلك الامتزاج بين الشخص والقضية بمختلف جوانبها وتشعباتها خارج الوطن، ولم يجد عند عودته إلى الوطن قبل عشر سنوات ما يدعوه إلى مراجعة ذلك التقليد والنظام الخاص الذي نشأ طوال سنوات الكفاح في الخارج. إن متابعة الكفاح لإنهاء الاحتلال تتطلب ذات الدرجة من الالتفاف حول القائد الذي أصبح هو والوطن صنوين لا يمكن فصلهما عن بعضهما. وكان يرى أن أولوية تحويل السلطة إلى مشروع دولة مستقلة تتطلب أن لا تكبل يديه أية قيود، إضافة إلى أن العودة إلى الوطن، وإن كانت مقيدة، قد عززت التماهي بينه وبين فلسطين، إلى حد الاندماج، ولم تضعفه. لقد أصبح الرمز الذي يصنع أول مشروع يبشر بالاستقلال لشعبه المضطهد والمشرد.

إن رؤيته الخاصة لكيفية إقامة الدولة العتيدة وبناء مؤسساتها كانت تتأثر بعاملين: - الأول واع تماما وهو إقامة مؤسسات ذات لون ديمقراطي لتحصين سلطته ودوره القيادي الخاص بواسطة الانتخابات، و تأمين الشرعية الكاملة له بعد أن هُددت وجرى تحديها طويلا أيام الهجرة والغربة عن الوطن من قبل المضيفين، ومن يتأثر بهم من أطراف الحركة الفلسطينية. وهو يحتاج إلى إضفاء صبغة ديمقراطية على مؤسساته لأنها تتنافس أيضا مع المحتل الإسرائيلي الذي يزعم أنه يستأثر وحده بصفة الديمقراطية في المنطقة.

والعامل الثاني الذي يمكن القول إنه نصف واع على الأقل، وهو تأثره بالنموذج العربي الذي احتك به عن قرب، عبر صلاته مع جميع صنوف القادة والزعماء طوال أكثر من ربع قرن. فالطريقة المريحة للقيادة الفردية فيها إغراء لا يمكن مقاومته. ولعل الحصانة الثقافية ضرورة أساسية، بالإضافة إلى رسوخ تقاليد ديمقراطية داخل المجتمع، تكبح الفردية وتصدها، وهما أمران لم يتوفرا في ظل ظروفنا المحددة.

لقد ظل يقاوم فكرة تعيين رئيس للوزراء، أو التخلي عن قيادته المباشرة لمؤسسات وأجهزة مختلفة، لأنه علاوة على ثقته الكبيرة بقدراته، والتباهي بها، والتفاخر بأنه يتابع، ويذكر، ويعالج، كل فرعية صغيرة، فإنه يحاول أن يقنع الجميع بأن بقاء هذا التقليد هو مصلحة وطنية شاملة وهو ضمانة لحماية المسيرة من أية تأثيرات خارجية ضارة.

وهذا الذي قد يجعل من المستحيل الإجابة عن سؤال ما إذا كان ياسر عرفات تقدميا، أم محافظا، وما إذا كان ديمقراطيا أم فرديا، جماهيريا أم شعبويا، منظما أم فوضويا. لقد كان ذلك كله بكل تناقضاته، وكان وطنيا كبيرا يرى نفسه في الوطن، ويرى الوطن يتجسد فيه، وفي هذا فقط لم يكن لديه أدنى إحساس بوجود فواصل. ولعل تلك التناقضات هي التي جعلت الكثير من خصومه وحتى العاملين معه، يعتبرونه شخصا غير قابل للتنبؤ المسبق بردود فعله أو بمواقفه.

وقد تكون في ذلك مبالغة كبيرة، لكنه كان حريصاً أن يضفي في معظم الأحيان الغموض والمفاجأة على مواقفة وعلى كيفية إعلانه عنها. . كان يظن أن هذه واحدة من الصفات- الأسلحة القليلة التي تجعله قادرا على مواجهة تفوق الخصوم عليه، وعلى ضمان ولاء وإخلاص المقربين والمؤسسة التي يقودها، وحتى يكون عند الجميع هو صاحب الكلمة الأخيرة الذي يجب انتظاره.

٣

ولا بد من الإضافة هنا إلى انه ورغم تأثره بتجربة من احتك بهم من زعماء العرب، فانه لم يكن قمعيا. كان يكرر بالقول فقط بأنه " لا بد من أمير بر أو فاجر "، ولكن هذا كان مجرد نوع من المبالغة الكلامية التي كانت تطبع أسلوبه في الحديث، ولمواجهة أي انفلات أو خروج عن حدود الفوضى التي كان يسمح بها. كان يحب المساومة والتوصل إلى حلول وسط مما يوفر عليه خطر القطيعة مع احد.

كما أنه، وفي نظرته الخاصة المبسطة للتناقضات الاجتماعية، خاصة بعد أن صار على قمة هذا المجتمع بعد عودته إلى الوطن، ظل حريصا على معالجتها بواسطة التخدير أو الحلول الإدارية المباشرة مثل التوظيف المكثف وبالتعامل مع المكونات الأولية التقليدية للمجتمع من عائلات، وشخصيات، وولاء مناطقي وعشائري. إن نظرته الخاصة التي كانت تشرع لفوضى محدودة، أو لتعدد مؤسسات ذات صلاحيات متشابهة ومتماثلة أحيانا، كانت ترمي فقط إلى تعزيز ارتباط

المجتمع به، وتوجه كل فرد، أو فئة إليه مباشرة لتحل تناقضاتها ونزاعاتها الناتجة في بعض الأحيان عن قراراته ذاتها، تحلها معه وتجد حلها عنده.

كل شيء عنده يقف عند الحافة ولا يتعداها، ولكن المسافة حتى الوصول إلى تلك الحافة يمكن أن تصبح مرتعا لجميع أنواع حرية التصرف والفعل من قبل أفراد ومؤسسات ومجموعات تدين بالولاء لقيادته في إطار القانون، أو على حدوده، وربما خارجه. ونادرا ما كان يلجأ إلى التغيير، وإلى تبديل مواقع الأفراد، إلا إذا كان ذلك تحت ضغط أسباب قاهرة حتى لا تهتز صورة، ووضع النظام الذي أقامه. إن التغيير سلوك عنيف، وقد ينتج عنه اختلال في تركيب المؤسسة مما يقود إلى تداعيات تهدد استقرارها بالكامل. ثم ما هي الحاجة إلى التغيير إذا كان من الممكن معالجة أي أمر صغر، أم كبر بواسطة اللجوء إليه، هو، مباشرة، وبالتالي تجاوز تهاون وضعف أو سلبية الشخص المطلوب تغييره بدون تغيير !!

وعلى الطرف الآخر من عدم الحسم تقف الجرأة. كان ياسر عرفات جريئا إلى حد التهور أحيانا. وبدون جرأته تلك التي تصل أحيانا حدود اللا معقول الخرافي، وأحيانا أخرى حدود اللا مألوف المتطرف، ربما ما كنا وصلنا بالحركة الوطنية الفلسطينية إلى ما وصلت إليه. إن جرأته وحدها هي التي دفعت لاتخاذ قرار البقاء داخل قرية الكرامة خلافا لنصائح وتقديرات بعض العسكريين " العباقرة " . . ومنهم من ظل يتباهى على شاشة الجزيرة حتى قبل أشهر بأنه كان الأصح في موقفه عسكريا، لقد دفع قراره " المجنون " وفق حسابات أولئك العسكريين – إلى سقوط عشرات الشهداء الذين أحاط بهم العدو الإسرائيلي من كل جانب، ولكنه القرار الذي اخرج الحركة الفلسطينية إلى الشارع الفلسطيني والعربي من أوسع مداخله. كان لديه حس مرهف يدفعه إلى انتهاز لحظة التهور والإقدام عليها و عدم تركها، وهو الحس الذي ظل يوجهه طوال حياته ولم يخنه إلا في لحظات محددة، خاصة في السنوات الأخيرة من حياته. ففيها اعتمد فقط على حسه الذي يغريه بان يلجأ إلى الجرأة، بدون أن يرفقه بحسابات دقيقة وإعادة حسابات كانت تمليها أوضاع دولية، وإقليمية، وإسرائيلية أصبحت أكثر تعقيدا وخاصة بعد أحداث سبتمبر الأمريكية.

لقد أنقذت جرأته مسيرتنا من منزلقات كثيرة، لعل من بينها ورطة الانشقاق على فتح الذي وقع في سوريا عام ١٩٨٣ . كان ياسر عرفات يسعى جهده لإخراج اللاعب الرئيسي الذي يقف

وراء الانشقاق إلى المسرح الأمامي بدلا من تستره وراء واجهة فلسطينية تدعو إلى الإصلاح ضد " فردية ياسر عرفات وخروجه على كثير من الثوابت وعلى وحدة الموقف القومي . " فياسر عرفات لم تنطل عليه يوما دعوات "المصير القومي الواحد" ، ربما لأنه بدأ التعامل مع الواقع العربي من أعلى، وفي مرحلة مبكرة من توليه قيادة الحركة الفلسطينية بعد عام١٩٦٧ . ولكن هذا موضوع آخر . المهم أنه وبعد إبعاده عن سوريا عاد بجرأة جنونية إلى طرابلس متحدياً ومستفزاً حتى أرغم اللاعب الرئيسي على الخروج بدبابات ومدفعية إلى الخشبة الأمامية، وغاب " الاصطلاحيون " بعدها بلا رجعة .

٤

قلت له مرة في إحدى رحلات طائرته أثناء سنوات ترحالها الدائم، وهي سنوات طويلة : " أنت مزيج من علي ومعاوية، وأبو موسى وابن العاص . " ابتسم تلك الابتسامة التي تضيق فيها عيناه في العادة وعلق على غير العادة بشكل مرتبك " الله يسامحك " كان معجباً بالتشبيه ولكنه لم يكن يرغب في تأكيده حتى يبقينا معلقين بين اليقين وعدمه . . . لأنه جريء في عدم الحسم أيضا . لم يكن بذلك يعبر عن التواضع . . فمن بين تناقضاته تلك المعادلة التي يجمع فيها بين التواضع الشديد الذي يبدو ولمن لا يعرفه انه مبالغ فيه في بعض الأحيان . . . وهو يتعمد تلك المبالغة، وبين نزعة انعدام التواضع والتفاخر، ولا أقول الادعاء المبالغ به إلى حدود تفوق المعقول . كان يروي دائماً انجازاته على الصعيد الدولي ومساهماته في حل صراعات ونزاعات عالمية كبرى، إلى جانب التذكير بعضويته القيادية في المؤتمر الإسلامي، وعدم الانحياز، والقمة الإفريقية أمام كل أطياف محدثيه من أي زاوية من زوايا الأرض جاءوا .

ولم تكن تلك روايات مختلقة فقد كان يعتمد على معرفة من يحدثهم أن فيها جانبا من الصحة، وأن المبالغة لا تلغي جوهرها الرئيسي، وبأنهم في حضرة قائد ذي دور يتجاوز حدود وطنه ورسالته الصغيرة نسبياً إلى مستوى إقليمي، وديني يشمل الديانات الثلاث، وعالمي كذلك . كان حريصاً على تأكيد ذلك حتى يؤكد اتساع قضية وطنية وعالميتها . . . فلا يجب أن ينسى احد أن الحدود بين الوطن وشخص القائد قد انمحت منذ زمن .

وكانت له طريقة خاصة في رواية مآثره وانجازاته، يجعلك تشعر وكأنه يستخف ولا يتباهى

بها . كأنها مجرد نماذج وعينات لإنجازات أوسع وأكبر حققها في الماضي وهو قادر على توسيعها في المستقبل . وهو بهذا لا يلجأ إلى التفاخر الكاذب ، ولكنه يسعى دائماً لإرسال رسالة أو إقناع محدثيه بخلاصة رئيسية مؤداها انه هو – الوطن ، لو تحرر ، لو امتلك مقومات دولة حرة مستقلة ، لكان بإمكانه أن يفعل الكثير على هذا الصعيد ، وان يضاعف الانجازات لمصلحة العالم بأسره .

وكان من النماذج الأثيرة لديه دائماً التذكير بنجاح جهوده لحل قضية أفغانستان قبل عقدين من الزمن ، وهي الجهود التي أحبطها بن لادن بالتواطؤ مع الأمريكيين وقتها عندما كان يوحدهما هدف مشترك وهو الحرب ضد السوفييت . ولك أن تستخلص كم عصفوراً يصطاد بهذه الرواية ، وأية رسالة " راهنة " يرغب في توجيهها في ظل الظروف الراهنة .

ولكن تواضعه يظهر في معاملته للناس البسطاء ، حيث كان يقبلهم على الوجنات وبالجملة ، حتى لو أورثه ذلك الإصابة بعدوى الانفلونزا وهو ما كان يحصل فعلاً بشكل شبه دائم . كانت شعبويته غير متكلفة ورقيقة وتدخل إلى قلب من يلقاهم . وهو يستمتع بها إلى أبعد حد ، ولا يدعيها لمجرد كسب ود الناس وتقديرهم له .

وكانت له ذاكرة حادة تسعفه في تعزيز تلك العلاقة المفتوحة مع الناس ، فكم شهدت وقائع كان يذكر فيها لقاءات مع أناس غرباء قبل عقدين أو ثلاثة عقود ، ويعرف كيف يستعيد معهم ذكرياتها . لم يكن ذلك تمثيلاً مجانياً ، ولكنها الرغبة العميقة في كسب الناس كلهم وبجميع ألوانهم واتجاهاتهم ، ثقة في أن لكل منهم دورا ومكانة مهما صغرت يمكن أن يخدم بها مشروعه الوطني .

وقد اعتاد على تقبيل أيدي الأطفال ثم طورها بعد ذلك إلى تقبيل أيدي النساء كلهن ومن جميع الأعمار ومهما اختلفت المناصب ، حتى رؤساء الجمهوريات من النساء اللواتي كن يصبن بالحرج بحكم موقعهن . ولكنه حرج أنيق يخفي الإعجاب برقة هذا الرجل المهذب إلى ابعد حدود التهذيب ، والعصري ، أيضا ، الذي يخرج عن المألوف على النقيض من غيره من القادة والزعماء !!

كان معتزاً بكونه قائداً لفلسطين ، وانه يحمي الرموز والمقدسات الدينية المسيحية والإسلامية بحكم هذا الموقع ، وانه كما قال له بطريرك الأرثوذكس في أول احتفال لعيد الميلاد يحضره في بيت لحم عام ١٩٩٦ " خليفة عمر بن الخطاب الذي يصافح خليفة البطريرك سوفرونس " – الذي

كان معاصراً لعمر وتلقى منه العهدة العمرية.

ويمكن قول الكثير عن علاقته بالدين وبحرية المرأة، وحرصه على المساواة بين المسيحيين والمسلمين وإقامة أوثق صلات مع رجال الدين المسيحيين من مختلف الطوائف حتى كان يتفاخر دائماً بأنه وضع تعبير الأماكن المسيحية قبل الإسلامية عند صياغة الرسالة التي تعهد فيها شمعون بيريز - وقت توقيع اتفاق أوسلو - بصيانة مؤسسات مدينة القدس الدينية والمدنية.

هذه كانت طريقته من أجل حفر موقع له في التاريخ، ولكنه كان قائداً تحركه الأهداف والمصالح المباشرة كطريق مؤدية نحو التاريخ. كان يتعامل مع الأديان كلها كقائد وطني فلسطيني، وليس باعتباره ممثلاً لدين واحد مقابل الأديان الأخرى، وبهذا كانت تظهر "علمانيته" على طريقته الخاصة. كان متديناً ويعلن معرفته بأحكام الشريعة وبسائر الطقوس الدينية حتى للديانات الأخرى، بل إن رؤيته للتاريخ كانت تتأثر إلى حد بعيد بوعيه الديني وبالثقافة والمعلومات الدينية التي تلقاها في سن مبكرة من عمره عندما أخذ يحتك بجميع التيارات السياسية في مصر، لما بدأ في تأسيس رابطة الطلبة الفلسطينيين في مصر في مطلع الخمسينات.

التاريخ عنده يعني جميع القصص الواردة في الكتب المقدسة، وجميع أساطير الأولين وحكاياتهم، وهو لذلك كان يستعمل لفظ التاريخ للدلالة على تلك الروايات، والمواعظ التي تتفرع عنها.

من ذلك كله يمكن الاستنتاج بأن اعتزازه بنفسه يكمل تواضعه الزائد عن الحد، وذلك لا يمثل غروراً متصنعا، وتواضعا زائفاً، وإنما وظيفة سياسية يعيها بدقة ويقدرها مسبقاً، ويدفع ثمنها كذلك في هيئة جهد زائد ومضاعف، لكنها تجلب إلى قلبه راحة من نوع خاص، أيضا.

ولما كان يعتبر أن كل انجاز له، وكل تعزيز لمكانته، وتقدير لشخصه يخدم قضية الوطن، بل ويشكل مقياساً لموقف الآخرين زعماء أو هيئات دولية إزاء هذا الوطن، فقد كان حريصاً على التقيد بجميع المراسم البرتوكولية التي يؤديها كرئيس لدولة فلسطين، ثم كرئيس للسلطة الوطنية بعد عودته إلى ارض وطنه. لقد حرص على تغيير ما في وثائق أوسلو حتى يحصل على لقب رئيس ولو اقتصر ذلك على استعمال التسمية بلفظها العربي RAIS في نصوص الاتفاق مع الإسرائيليين، وان تكون تلك التسمية مصحوبة بانتخابه مباشرة في موازاة انتخاب المجلس التشريعي وبصلاحيات رئاسية كاملة. كان هذا انجاز له يحب أن يذكر الآخرين به، هو/ الوطن.

٥

ولأنه لم يكن يلمس أي فرق بين تعزيز دوره السلطوي والقيادي، وبين تعزز المشروع الوطني الذي يسعى إلى تحقيقه، بل إن الأول يقود إلى الثاني بحكم التوحد التام بينه وبين قضية الوطن، فقد كان يضيق في بداية عهد السلطة بكل دعوات الشفافية والمكاشفة ويسخر منها، ويقابلها بإدارة الظهر ومواصلة تركيز جميع المسؤوليات عنده بشكل مباشر.

ولعل الجانب الاقتصادي قد استحوذ على اهتمامه المركزي، خصوصاً في ظل الحصار المالي الذي تعرضت له السلطة بعد انتهاء حرب الخليج الأولى، وحاجته مع البدء في تأسيس السلطة إلى مصادر إنفاق مالي لا توفرها الموازنات والمشاريع الدولية، مما دفعه إلى احتكار بعض السلع الرئيسية وتوجيه عائداتها إلى خزينة السلطة مباشرة.

كان المال، إلى جانب الإمساك بالأجهزة العسكرية والمدنية، والسيطرة المباشرة على الإعلام الحكومي، بمثابة الثالوث الذي يفسر لديه معاني مصطلح السلطة. وظل يرى فارقاً ضئيلاً بين عنواني الاقتصاد والمال، لصالح اعتبار الثاني هو الأساس، بينما الأول مصدر تمويل وتعزيز للثاني، وبالتالي تقوية السلطة وتدعيمها لأنها هي الهدف الأسمى في حد ذاته. أما المال بحد ذاته فهو عديم القيمة إطلاقا في نظره، ولذا كان يصرف بدون حساب أحيانا ويوقع على مئات وآلاف أوامر الصرف يومياً. ولكي يثبت أن المال أداة للسلطة لا غير، فقد كان يعيش حياة متقشفة للغاية. بدلة عسكرية تآكلت أطرافها وتهدلت بعد استعمالها المستمر لمدة تقارب ربع قرن، وبدلة رياضة للنوم عاشت معنا عقوداً داخل كل أنواع الطائرات والضيافات، وقائمة طعام مختصرة وفقيرة تتكرر كمعزوفة حزينة يومياً منذ سنوات، إلا في حالة مجيء ضيوف خاصين. وسواء كانت الوجبات ساخنة أو باردة، يفضل انتظارها حتى تتجمد برداً، فهذا " البذخ " كاف ويفوق الحدود المسموحة أياً كانت حالة الطعام.

لم يكن يحب أن يقيده شيء، وكان واثقاً من أن ذلك هو الطريق إلى بناء الدولة،

وأن ديمقراطية البرلمان والصحافة والإعلام والأحزاب، بما فيها حزبه الخاص، يمكن السماح بها شريطة أن لا تقيد خطه السياسي ورؤيته وأساليبه في العمل. وحتى يمكن التعايش مع هذا التناقض، فان الإكثار من الاجتماعات مع الإكثار من عدد الهيئات القيادية، وغض النظر عن

فوضى التصريحات السياسية وغيرها من أشكال التعبير، إلى جانب السعي لإرضاء الجميع بكل وسيلة متاحة، قوى وأحزاب وشخصيات ومسؤولين ومؤسسات، هذا كله كان بعض وسائله لإقامة نظام ديمقراطي تحت مظلة وضع رئاسي مطلق الصلاحيات في حدود ما تسمح به الاتفاقيات الموقعة.

ومع بدء الانتفاضة تصاعد العداء بينه وبين ما سمي بمشاريع الإصلاح، لأنه اعتبرها، بل وتعامل معها على أنها دعوات خارجية ذات أهداف سياسية لا صلة لها بالإصلاح وهدفها تقييده ومنعه من مواصلة السير على الطريق الذي اختطه وخاصة بعد بدء الانتفاضة. ولذا كان من جهة أخرى يتصرف مع دعوات ومشاريع الإصلاح على أنها أوراق مساومة تفاوضية مع الخارج أكثر مما هي حاجة داخلية، ويلجأ إلى كل أشكال المناورات المكشوفة أو المعقدة لتأجيل تطبيق تلك المشاريع.

ولم يكن أمراً شاذاً على الإطلاق أن تجده يتساءل مستنكراً عن ما ينبغي إصلاحه. لقد أقام نظاماً له توازنه الداخلي الخاص وانتقى في بعض المفاصل الأناس الذين يحمون هذا التوازن ويمثلونه، ولذا كان يعرف أن أي تغيير فعلي قد يطيح بهذا التوازن وبالتراتبية ونوع النظام والسلطة التي بناها. لقد كان حذره مبرراً لأن استيقاظ العالم الخارجي على دعوات الإصلاح بدأ عندما بدأت عملية النقد لمواقفه وسياسته خصوصاً بعد قمة كامب ديفيد ثم اندلاع الانتفاضة، وبعد مرور سنوات أغمض فيها هذا العالم أعينه عن كل نواقص أو سلبيات صاحبت مرحلة البناء الأولى.

ولأنه لم يكن يثق في استمرار دعم العالم وتبنيه له، على الرغم من جائزة نوبل للسلام التي حصل عليها، فقد كان يسعى، وبجميع الوسائل، إلى إيجاد مصادره الخاصة لتأمين بناء سلطته وتمويلها وتعزيزها. ولو أردت أن تبحث عن نموذج ملهم له لبناء سلطته لما وجدت اقرب من النموذج المصري مباشرة بعد ثورة عام ١٩٥٢، مع تحويرات يحتاجها الوضع الفلسطيني في ظل مواجهته للاحتلال الإسرائيلي، وحاجته تبعاً لذلك إلى درجة كبيرة من التوافق والوحدة الداخلية.

كان يتعامل مع دور الأجهزة وتعددها، بالترافق مع السيطرة المطلقة عليها، ومع الإعلام الحكومي الذي كان يريده في البداية أن يكون الإعلام الرئيسي في البلد، بالإضافة إلى السيطرة على مختلف مفاتيح المجتمع، كان يتعامل وعينه على ذلك النموذج، ولعله النموذج الذي عايشه

ولمس مزاياه بالقياس إلى نماذج أخرى لم تقنعه وأثارت مخاوفه لكونها أكثر راديكالية وأشد قمعاً وهيمنة مما يسمح به وضعه.

ويمكن قول الكثير عن الطريقة التي أدار بها علاقاته العربية والدولية قبل أوسلو وبعدها. ومن حقه علينا أن نؤكد بأنه لم يسع يوماً منذ نهاية الستينات إلى صدام مع أي نظام عربي أو كتلة دولية. بل كان يحذر من تلك الصدامات ويسعى إلى وأدها قبل اندلاعها الشامل، وينتقد بشدة كل من يؤجج نارها. ومن هنا يمكن القول أيضا إن وطنيته ظلت على الأغلب صافية بدون أن تعكرها أية أوهام قومية، أو ثورية.

وحتى خلال مفاوضات كامب ديفيد، فان ياسر عرفات لم يرفض أي عرض قدم إليه، ولكنه كان يمتلك الخبرة والحس الكافيين لكي يعرف انه لا توجد ملامح فعلية لتلك العروض، سوى الدعوة إلى التخلي عن سيادته على الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية، والتي قابلها بتوجيه الدعوة إلى الرئيس الأميركي للمشاركة في جنازته في ما لو قبل بذلك.

كما انه يمكن القول إن ياسر عرفات المحاصر، المتهم بتخريب فرص السلام، والذي لمس بعد انهيار قمة كامب ديفيد أن الضغط الإسرائيلي والأميركي عليه يضعه في موقف دفاعي، شعر ـ وخاصة بعد استفزاز شارون في زيارة الأقصى ـ بضرورة أن يسير مع الموجة الشعبية، ويستفيد منها حتى يكسر حصاره السياسي، ويعدل من بعض شروط التسوية التي عرضوها عليه، والتي لم يكن واضحاً منها غير التسليم باحتلال القدس. إن السير نحو حافة الهاوية كان تقليداً مستمداً من تجارب مرحلة الحرب الباردة، ولكن مع اختلاف العصر فقد أصبح ذلك فخاً يمكن أن يقع فيه صاحبه. وهكذا تصرف التحالف الأميركي ـ الإسرائيلي في عهد شارون مع الانتفاضة، ومع ياسر عرفات.

هل يكفي ذلك لمعالجة تجربة ياسر عرفات مع الانتفاضة.. بالطبع لا. ولكن محاولات تشويه صورته، وتحميله مسؤوليات جميع الآثام، ونقله من خانة بطل السلام إلى مشجع الإرهاب كما دأب الحلف الأميركي ـ الإسرائيلي على الترويج، لم تمر بدون أثر حتى عند بعض العرب والفلسطينيين. وكان أشد جراحه عمقاً ذلك التجاهل المتصاعد والإهمال الذي تحول مع مرور الزمن إلى تقليد دائم من جانب قادة وزعماء كانوا قريبين منه في المنطقة، بينما كان وجهه يشرق بالسعادة عندما يتذكر مواقف أصدقاء له لم يتخلوا عنه مثل قادة فرنسا وجنوب أفريقيا.

٦

كان ياسر عرفات يحب أن يعامل كجنرال، وكان يقدر الرتب العسكرية واقدميتها، وتسلسلها، وتحس باعتزازه وارتفاع كتفيه عالياً ولمعان عينيه وهو يضرب كعبه مع الآخر وأمامه حرس شرف تركي مثلاً حيث يصرخ فيهم حسب التقاليد العسكرية وباللغة التركية ثلاثاً " مرحب عسكر " . أو أن يقف تحت الثلوج ويرفع يده بالتحية العسكرية بينما الموسيقى تعزف ومجموعات من مختلف صنوف الأسلحة تمر أمامه في مطار موسكو . ولذلك . كان حريصاً على أن تصاحبه ذات المراسيم حيث ذهب بين مدن الوطن المختلفة رغم أن ذلك تقليد لم يسبقه إليه احد من قبل .

وكان يحب أن يتدخل في المشاريع الاقتصادية لأنه يثق في قدراته في هذا المجال، وتسحره ذكرياته عن عالم الإنشاءات والهندسة خلال عمله في الخليج، فيتدخل منذ اليوم الأول لوصوله إلى الوطن في إنشاء ميناء موسع للصيادين في غزة، وفي جميع مراحل بناء المطار ثم عملية تصميم الميناء العام التي بدأت فيما بعد .

وكنا للحق نخاف من بعض تدخلاته في الأمور الصحية لأنه كان يحتفظ في طائرته بحقيبة جلدية متوسطة الحجم، ودائماً تبدو ممتلئة يسميها " شنطة الأدوية " ولا نعرف لماذا يتناول أحيانا أدوية بأعداد وفيرة، لكنه يسكتنا إذا تساءلنا لأنه يعرف ماذا يفعل .

وفاؤه لأصدقائه القدامى لا مثيل له . . . . خاصة أولئك الذين عايشوه خلال مرحلة الطلبة في مصر . لذا، كان يعتز بعلاقته مع بشير البرغوثي، ومع أبو إياد، ومع الذين كانوا على لائحته الانتخابية من مختلف التيارات في تجربة زعامته الأولى . ولأنه لا يمتلك مشاعر أعلى من مشاعر الإخلاص للسلطة، فقد كان يغفر لجميع الذين أساءوا، أو انشقوا، أو تمردوا خصوصاً إذا عادوا وأعلنوا ولاءهم . لقد أتقن بشكل مذهل معرفة الناس عبر الالتقاء مع مختلف صنوفهم طوال أكثر من أربعة عقود وهو في موقع الزعامة، وصارت لديه فراسة خاصة تمكنه من التقاط "نوعية" من يلتقي معه منذ اللحظة الأولى وبالتالي تكييف خطابه وأسلوب تعامله معه وفق ذلك .

أصبحت العملية تتم بشكل تلقائي وأجرؤ على القول غير واع، واستمر يطور هذه الحاسة الجديدة لديه حتى تحولت إلى جزء طاغ في شخصيته، وكنا نتحسب أحيانا للكيفية المبالغ بها التي سيقابل بها أشخاصا ذوي موقع هام، لكنه كان يفاجئنا في انه كان قادراً على " الوصول " إليهم

بفضل أسلوبه الخاص المستمد من فراسة تختص بمعرفة نوعية البشر وإلى أي نموذج ينتمون.

وقد رأيناه، مثلا، في جامع باكستاني حيث يندفع نحوه المصلون ويتبركون بلمس طرف بزته، التي كانت طوال الوقت ومنذ عرفناه مهترئة، وهو يحرص على الحفاظ عليها وعدم استبدالها لأنها أصبحت جزءاً من تكوينه ومن الانطباع العام عنه... ورأيناه في الكونغرس الأميركي وهو يقابل صفاً من أهم أعضائه، وكل منهم يحمل ورقة أو بطاقة بريد يريد الحصول على توقيعه عليها ليهديها إلى أحد أحفاده. كانت العرفاتية نمطاً من التناقضات المحببة التي تستهوي الغالبية الساحقة من مختلف الشرائح والأصناف، وصار معروفاً على مدى العالم مثل وطنه وقضيته، بل لعل معرفته صارت مفتاحاً رئيسياً للتعرف على مأساة شعبه.

تصادف أن محمود درويش وأنا كنا معه في زيارة إلى السويد قبل عشرين عاماً. وبعد الاجتماع في مقر رئيس الوزراء، ذهبنا معاً لجلب معاطفنا، ولما عدنا وجدنا المقر خالياً والجميع قد رحلوا وتركونا وراءهم. حصلنا بعد جهد قليل على سيارة لتقلنا إلى مقر إقامة وفدنا، وكانت المصادفة أن سائقتنا كانت شابة سويدية ساحرة الجمال. حاولنا محادثتها فلم ننجح. سألتنا عن وطننا ولم تعرفه، فقلنا إننا من الشرق الأوسط فلم تبد أي اهتمام، فاضطررنا لتجربة سلاحنا الأخير بأننا ننتمي إلى ياسر عرفات فأشرق وجهها وتغيرت ملامح تجاهلها لنا وصرخت: - عرفات، طبعاً أنتم من عرفات !!

وهكذا أصبحنا نعرف حتى جغرافياً به.

٧

عندما أحاطت الدبابات بمقره وحاصرته، وبدأنا نسمع أصوات الانفجارات التي دمرت أجزاء منه، داخلني شعور غريب بأنه يحب تلك اللحظة، وأنه سيشهر رماح التحدي ويحولها إلى لحظة من لحظات التراجيديا الكبرى التي أتقن في مرات كثيرة من تاريخه انتزاع بطولتها وبجدارة. كان بيتي يبعد عنه مئات الأمتار - حيث تواجدت خلال الحصار وأدرت حملة إعلامية لكشف جرائم المحتلين على قدر ما أستطيع، بسبب منع التجول وإعادة احتلال رام الله بالكامل - وبقيت اكلمه بمعدل شبه يومي بالرغم من انقطاع التيار عنده، وفعالية أجهزة التشويش التي عطلت الاتصال الهاتفي، وجعلت التخاطب حتى عبر الهاتف المحول شبه مستحيل. ولكن في كل مرة يصلني

صوته كان يلقي عليّ خطاباً عن جرائمهم، ويفصّل ما يرتكبونه من انتهاكات، وكأنني أنا الذي يحتاج لمعرفة تلك التفاصيل بالرغم من أن الكهرباء والهاتف ظلا يعملان عندي.

وأحاول اقتناص كل فرصة خلال أحاديثنا لأطلعه على ما أظن انه في حاجة لمعرفته عما يحدث سياسياً في العالم الخارجي كرد فعل على حصاره. لكنه يواصل شرحه ليقنعني انه أصبح يسيطر الآن بشكل أفضل على مسار الأمور، ويلم بالتطورات أفضل مما كان عليه الوضع قبل الحصار. كنت أفهم أن حديثه على الأغلب لم يكن موجهاً لي وإنما إلى من يعتقد أنهم يتنصتون على مكالمته.. ويختم كل مقطع من الحديث بالتأكيد... " ولا يهمك، نحن لها ".

ها هو أبو عمار يتألق من جديد، ويعود إلى ميدانه الذي يصعب أن يزاحمه فيه أحد، وإلى استرجاع ذكريات الحصار الأكبر في بيروت قبل عشرين عاماً بالضبط، وإلى زمان أكثر من حصار، وحرب قبلها وبعدها. ولعلها لحظة تبعده أيضا عن تلك المهمة المتعبة والمعقدة لإدارة مؤسسات السلطة وللتعامل مع تناقضات اجتماعية وهموم وضع اقتصادي واحتياجات مالية متزايدة، بالإضافة إلى إدارة صراع مع برلمان صار يلجأ إلى المشاغبة أحيانا لتعديل أوضاع بدأت تستفحل وتتدهور.

لم تكن مهمة إدارة شؤون السلطة ـ ورغم استمتاعه بها ـ المفضلة دائماً لديه. لم تكن تلك التي يفضلها، بالرغم من أنه كان يقف على رأس السلطة حيث لا ينازعه على قيادتها أحد.... أما الآن، في ظل الحصار، فكل الأمور تتراجع أمام قضية واحدة هي حصار البطل، وكل اللاعبين يخرجون من الحلبة ويبقى فيها فقط مصارع الثيران وحده يدور برشاقة حول ثور هائج، ويتمتع بآهات الجمهور الذي لم يعد يهتم بشيء سوى أن لا تنغرز قرون الثور في لحم البطل الأسطوري. وبعد أسبوعين من حصار محكم تخللته محاولات إذلال وتجويع وقطع مياه عنه، وعن المئات المحاصرين معه في مقر المقاطعة، سمح الغزاة لمجموعة منّا بينها أبو مازن [محمود عبّاس]، وصائب [عريقات] وأكرم [هنية] وأنا بالدخول إلى مقره. وتكررت تلك الزيارات مرات عدة قبل أن يرفع الحصار.

كنا نعبر الشوارع المغبرة التي لا تذرعها غير الدبابات، وندخل إلى ساحة مقره التي شهدت في الماضي هبوط طائرات الهليوكوبتر التي كانت تقله، والتي أصبحت الآن مقبرة لعشرات السيارات المدمرة وتنتشر فيها رائحة زيت محترق، ونفايات متكدسة، كما تتخللها برك ماء،

ووحل، بسبب تحطم الأنابيب والمجاري. وكان هو في الداخل يوقع أوراقا ويدير أمور حصاره الصغيرة بما فيها توزيع كميات الطعام، ويتذمر مثل عادته بدون مكابرة مفتعلة، من كثرة أعبائه. ما الذي يود أن نقوله عنه للعالم وللفلسطينيين:

إن الحصار لم يمنع قائدهم من متابعة دوره كقائد لهم.

نتبادل الأحاديث والنكات، نعاين وجهه الذي بهت لونه بسبب عدم التعرض للشمس، ونراقب جسد الرجل السبعيني الذي يحاول أن يثبت لنا أن عشرين عاماً لا تفصله عن حصاره الأكبر في بيروت، وأنه قادر على حمل العبء والتجلد أمام هذا الحصار أيضا كما فعلها في السابق.

لكن شكوكنا بدأت تنمو في تلك اللحظة بأن المصارع لم يعد بذات الرشاقة والمرونة الجسدية كما كان في الماضي بالرغم من استمرار صفاء ذهنه ويقظة أحاسيسه واستعداده للدخول في لعبة الموت الجديدة. ولكن من الذي يمكن ان يقنع الميتادور المدمن على النزال أن العالم لم يعد العالم ذاته الذي كانه قبل عشرين عاماً، وان نسبة القوى قد تبدلت وانزلقت أكثر مما كانت عليه، وان القرار الاحتلالي المغطى بضوء أخضر أمريكي صار يجد أمامه مساحة أوسع من حرية الحركة بعد أن تقلصت في عالم اليوم إرادة القادرين على لجمه وتعطيله، أو على الأقل مساومته كما كان يحصل في الماضي.

ومنذ تلك اللحظة بدأت مناورته الكبرى والأخيرة مع قوى تفوقه بكثير، ومع قافلة ثيران يقودها وحش أسطوري اسقط كل قواعد الصراع السابقة، وأحل مكانها قاعدة واحدة وهي محاولة إخضاع كل معارضيه لشروط استسلام كاملة. لقد اندفعت تلك القافلة نحو الحلبة وأنهكته، ولكنه بقي يصارعها وهو ينزف كل يوم، ولا يتراجع إلا من أجل أن يناور، ويعيد الدوران، للوصول إلى قلب الحلبة من جديد، ولا يهزم. . . . أبدا.

بقي ياسر عرفات منذ إنشاء سلطته الوطنية فوق أجزاء من أرضه، يحاول أن يمسك بجميع مفاصل تلك السلطة وقد فعل. ولكن عينيه كانتا تتجهان دوماً نحو هدف أساسي وهو محاولة توسيع رقعة تلك السلطة وتوطيد أركانها وتعزيز قدراتها على حساب احتلال لم يحترم أي اتفاق وقعه معه، ولم يتراجع عن هدفه الأصلي في تعزيز استيطانه لمحاصرة كل إمكانية لنشوء مشروع وطني فلسطيني مستقل، وقابل للنمو والتطور.

خاض تلك المعركة خطوة بعد أخرى، على طريقته وبأساليبه الخاصة واعتماداً على قوى وأفراد ومجموعات كان يركن إليها ويثق في ولائها. وأمعن في إمساكه بالسلطة، حتى لا يجدوا مناصاً، من التعامل والمساومة معه وحده. لقد اعتقد أن ذلك بداية نهاية اللعبة، وسيغلق أمامهم كل الطرق حتى لا يبقى غير طريقه وحده، وحتى تتحقق المساومة التي توصل الحد الأدنى، الذي لا مساومة عليه، وهو قيام دولة مستقلة يصلي سوياً مع العالم بأسره في رحاب قدسها الشريف، كما دأب على تكرار ذلك دائماً.

٨

هل كان يناور مع مرضه كما يفعل مع خصومه، بالضبط. هذا هو ياسر عرفات، بقي يحاول كسب الزمن في صراعه مع المرض، ويتكتم على آلامه، ويحاول أن لا يظهر أي ضعف في بنيان جسده، كما كان يسعى إلى منع الضعف ولو بوسائل قسرية من السريان إلى جسد سلطته. هكذا تصرف مع كل المآزق، وخلال جميع المعارك السياسية الداخلية التي خاضها خلال سنواته الثلاث الأخيرة.

أصدر قراره لنفسه وجسده أولاً، ولمؤسسات سلطته تباعاً، بأن الانهيار ممنوع عليها كلها، وأنها قادرة، حتى لو كانت بعض الدلائل الملموسة تشير إلى عكس ذلك، على أن تستمر في الحياة بذات الطريقة السابقة، وعلى غرار ذات النموذج الذي صممه وأقامه قبل بدء حصاره. وربما كان بذلك يخالف تقاليد عمره الماضية في المناورة والتراجع المؤقت. ولكنه كان يعرف أكثر من غيره أن وراء ظهره حائط واحد وأخير لا يجوز للبطل أن يصل إليه ويسقط، وأن المطلب الوحيد الذي يقنع أعداءه هو رحيله.. ولذا فهو سيبقى حيث هو ولن يسقط أو يرحل.

وظن أن إبقاءهم عليه في وضع الحصار الذي عاش فيه لسنوات سببه عجزهم عن إسقاطه أو إيجاد بديل عنه، بينما ظل أصدقاؤه في وطنه، وفي العالم، يحاولون بدون نجاح إقناعه أن وضعه الحالي، وبأساليبه وطرق إدارته الراهنة للصراع، كان أفضل خياراتهم حتى يحملوه مسؤولية ما يقع، ويبرروا استمرار سياستهم وتعطيلهم لجميع خطط ومشاريع الانفراج والحلول التي كانت تتوالى بدون نتيجة.. لأنهم لم يكونوا أصلا جادين فيها. وعند تلك النقطة استطاع المرض وحده أن يهزمه، وهو العدو الذي ربما كان يستهين به أكثر من بقية الأعداء، وكان يعتقد

انه قادر على الحد من استفحال خطره. بل وأنه الخطر الأصغر، قياساً بخطر المتآمرين على سلطته والساعين إلى إضعافها وتدميرها.

٩

ليلة رحيله إلى فرنسا، دخلت مع أبو مازن، وأبو علاء، وزوجته، إلى غرفته التي تعوزها التهوية، وتفتقد إلى ابسط الشروط الصحية بسبب ضيقها وعزلتها عن ضوء الشمس. أردنا أن نعرف قراره بشأن السفر للعلاج في الخارج بعد أن اجمع الأطباء على ضرورته الفورية. لم أكن قد رأيته منذ أكثر من أسبوع بسبب عزل الأطباء له، واقتصار اللقاءات معه على أشخاص محدودي العدد اقتضت ضرورات العمل العاجلة أن يراهم. كان جسداً يأكله المرض ويتراجع نحو هزال شديد وضعف شامل وظاهر. ومع ذلك، فقد رفض الانتقال قبلها بيومين إلى غرفة أوسع وأفضل هواءً لأنه مصمم على أن يبقى السجن الذي هو فيه سجناً بدون تزويق أو تحسينات شكلية.

هكذا كانت طريقته في العناد الذي يعتبره واحداً من أشكال احتجاجه السياسي الموجه ضد استمرار سجنه نحو العالم قاطبة. قال كلمات قليلة معلقاً على قرار الأطباء وهو يبتسم مثل طفل وجد نفسه مرغماً على ابتلاع دواء شديد المرارة "على بركة الله". وظللنا نمزح ونحاول تحسين أجوائنا النفسية في ظل مناخ خانق لا يسمح بذلك. وكان خلال الفترة السابقة يقنع المحيطين به أن مرضه ليس سوى نزلة أنفلونزا تسربت إلى أمعائه، وأنه تخلص منها قبل عام بعد أن استمرت عشرة أيام، ولا يدري لماذا تستمر الآن لأكثر من أسبوعين. ربما كان يعرف أن الحالة اخطر من تشخيصه لها، ولكنه كان قلقاً على مشاعر المقربين منه وراغباً في طمأنتهم، بالرغم من أن معظمهم أصبح مدركاً أن هذه الرحلة لرئيسهم، وختيارهم، ليست مثل سابقاتها..

هكذا كان حدسنا يقول لنا، بأنها آخر معاركه الشاقة التي خاضها. وكم من معركة سابقة خاضها وكان بعيداً عنا، ومصيره في يد المجهول، ورغم ذلك كنا موقنين انه سينجو ويعود. ربما لأنه كررها أكثر من مرة ونجا، حتى أصبحنا نسلم بأنه بطل تراجيدي من نوع مختلف... يقاوم قدره ويتحكم فيه.

ففي ليلة سقوط طائرته في الصحراء الليبية، اجتمع عدد كبير من قادة المنظمة وفتح في إحدى مقرات العاصمة التونسية لغرض تلقي المعلومات عن مصيره. وكان جو الاجتماع قاتماً يسوده

الصمت لساعات طوال. دعاني أبو مازن إلى الخروج، فمشينا في الشارع المقفر، حتى نتخلّص من المناخ المأساوي الذي كان يحيط بنا. ولا اذكر من منا الذي بادر أولا ونظر إلى صاحبه متسائلا: هل تظن انه سوف يقضي في هذه الحادثة، إنها سقوط طائرة. وكانت طريقة السؤال والجواب الفوري الذي كان جاهزاً في ضمير كل منا يتلخص في ابتسامة تشاطرناها معاً:

سيعود حتماً، ولعله الآن ينظم وضع ركاب الطائرة وجرحاها. لن يرحل الآن. كنا نشعر انه سينتصر على الحادثة، ولم نمتلك أي دليل مادي في تلك اللحظة يدعم ذلك الشعور. وذهبنا معاً إلى بيت أبو مازن لننتظر. حتى جاء رنين الهاتف في السادسة صباحاً ومعه الخبر: - انه حي وبخير.

ليلة وفاته جاء التأكيد من باريس بأن الحياة لن تمهله سوى بضع ساعات أخرى. كانت المؤشرات تزداد سوءاً خلال الأيام الماضية، وبدأت الهمهمة والمشاورات حول ترتيبات وداعه ومكان الضريح الذي يليق به. وعند قرابة الخامسة من صباح يوم الخميس، يوم رحيله، كان رنين الهاتف وحده كفيلاً بإبلاغي ما حدث. لم استمع إلى صوت المتكلم، وإنما قلت مستدركاً: - سأحضر فوراً إلى المقاطعة.

بدأت في كتابة بيان النعي على طاولة الغرفة الصغيرة المجاورة لمكتبه، واتخذت قراراً داخلياً فورياً بأن أفصل بيني وبين الحدث حتى أتمكن من صياغة البيان وإلا كان من المستحيل علي القيام بهذه المهمة المريرة والثقيلة. لا بكاء، ولا تشنج أو تأثر ظاهراً، حتى استطيع أن أنجز أخر مهمة يكلفني بها، وحتى أصوغ بياناً يستحق أن يحوي نبأ رحيل والدنا، وختيارنا، ومؤسس حركتنا الوطنية المعاصرة، ومنظم فوضانا، ورأس كل انجازاتنا وخطايانا.

كنت حريصاً على كل التفاصيل بما فيها انتقاء صفاته التي يستحقها وأفعاله الكبرى التي حفرت عميقاً في حياة كل واحد منا، حيث لا مجال للخطأ في لحظة الإعلان عن إقفال الستار على أهم مرحلة في تاريخنا المعاصر وغياب بطلها الأول، ولعله الأوحد. وعندما كان الطيب عبد الرحيم ينشج وهو يقرأ البيان أمام كاميرات التلفزيون في الصباح الباكر لذلك اليوم الخريفي، كنت أراقب سطور البيان تنزلق واحدة تلو الأخرى وأنا اجلس إلى جانبه، وبدا لي أنني اسمعها مثل غيري من الملايين لأول مرة.. وعندها بدأ قلبي في النحيب. مات أبي.

جلسنا بعد ظهر ذلك اليوم نشاهده محمولاً على أكتاف ضباط فرنسيين، يسير وئيداً أمام

فرقة موسيقية تعزف نشيده الوطني الذي اختاره بنفسه، بأسلوب هو الأجمل والأكثر انسجاماً وانسيابية عن أية مرة سابقة سمعنا النشيد فيها. كم حاولنا أن نثنيه عن اختيار هذا النشيد "فدائي" وان نعتمد نشيد "موطني" بدلاً منه، ولكنه كان مصراً على اختياره.

ربما لأنه النشيد الذي يرمز إليه، ويلتصق بتاريخ كفاحه الوطني المعاصر أكثر من غيره.. إنه جزء من مرحلته، وهو لا يجب أن يستعير رموزاً لا تنتمي إليه. وفي تلك اللحظة عشقت نشيدنا الرسمي، وأحسست كأنه اختاره وهو يعرف انه يصلح لجميع الطقوس بما فيها طقس وداعه.

بكيت بغزارة لأنني رأيته داخل الكفن يتمتع بكل لحظة من لحظات هذا الوداع المهيب، فقد مات رئيساً، وودعته فرنسا باسم العالم كرئيس، وأعطته ما كان يطمح أن يكونه دائماً ولو في ساعة الوداع: رئيس دولة فلسطين بدون انتقاص أو رضوخ لادعاءات خصومه عنه في سنواته الأخيرة.

١٠

في القاهرة وقفنا نستقبل وفود المعزين والمودعين وهو يزداد رضى، لأن هواه المصري كان ثابتاً من ثوابته التي صاحبته من المولد وحتى الرحيل. ولم يكن يرى فرقاً بين شوارع القاهرة أو شوارع أية مدينة فلسطينية فيما لو سارت عربة المدفع تحمل جثمانه عبرها. ثم جاءت لحظة الانتقال إلى ارض الوطن، واخترت أن أصاحبه داخل طائرة الهليكوبتر التي تحمل جثمانه نحو رام الله، برفقة مجموعة صغيرة تضم صائب عريقات وناصر القدوة، ورمزي ويوسف. كنت ببساطة ارغب في أن لا افترق عنه في آخر ساعاته فوق هذه الأرض، وخاصة عندما نجتاز سماء الوطن، ونطوف فوق مدنه وقراه.

ومرت الطائرة المصرية على طول ساحل غزة ببطء وتمهل.. وكان هو يجلس إلى جانبنا مستلقياً داخل نعشه وعلمه بدون أن يشاركنا، كما كان يفعل في الماضي، التدقيق في مدن ومزارع ساحلنا، وفي معاينة موقع الميناء الذي اختاره ولم يتمكن من إكمال تشييده، وفي مراقبة حركة قوارب الصيادين التي لم يكن يسمح لها بالتوغل عميقا داخل مياه البحر.

تصرفنا بغرابة شديدة، فقد اعتدنا في الماضي خلال الرحلات الطويلة معه أن ينتقل لينام في القسم الخلفي من الطائرة، بينما نبقى جالسين على مقاعد المقدمة ونتحدث بحرية عنه. بتعبير

آخر نستغيبه وهو على مقربة منا. فعلنا الشيء ذاته في هذه الرحلة الأخيرة حيث حاولنا أن نعرف من رفاقه الذين كانوا معه خلال فترة إقامته في المستشفى الباريسي كيف أمضى أيامه الأخيرة. حاولنا لوهلة الهرب من حقيقة أن هذه رحلة ليست كغيرها من الرحلات معه، حتى أننا قمنا وفتحنا له ستائر الطائرة القماشية التي كانت مسدلة حتى يدخل ضوء الساحل الغزاوي ويجلل صندوقه، وحتى يودع مدنه واحدة بعد الأخرى.

وانعطفت الطائرة من فوق الساحل نحو قلقيلية التي يخنقها الجدار، ثم نزلت إلى الغور حتى أريحا وعادت مرة أخرى في اتجاه رام الله. ولكننا لمحنا عن بعد لمعان قبة الأقصى فتوقفنا عن الحديث لأننا، هو نحن، كنا في حاجة إلى لحظة صمت في ذلك الموقع بالذات. ينبغي علينا أن نحترم حقه في إجراء وداعه الخاص مع القدس.

كان مغرماً بترديد رواية عن طفولته وبإعادتها تكراراً، تدور حول اشتراكه وهو طفل صغير في اللعب مع أطفال شعبه من مسيحيين ومسلمين في أزقة القدس القديمة وحارة أبو السعود حيث أقام لسنوات عند أخواله، بعد وفاة أمه. ويستطرد في سرد تفاصيل علاقته ولعبه كذلك مع أطفال اليهود في الحارة المجاورة، وكيف انه كان أحيانا يتحالف معهم إذا تخاصم مع أبناء جلدته، دون أن يجد في ذلك أية غرابة. ومن كثرة ما سمعها منه قادة مثل الرئيس الأميركي كلينتون، فقد كان يقاطعه ويكمل بقية الرواية نيابة عنه. كانت تلك طريقة ياسر عرفات في إبلاغ رسالته عن استعداد للتعايش وعن ضرورة منح أطفال الأجيال القادمة حق اللعب المشترك.

وصلنا فوق المقاطعة وكانت فوضى ياسر عرفات المحببة تموج بشراً بعشرات الألوف التي ملأت كل مكان بما فيه ساحة هبوطنا. كل شيء يجري وفق ما يرغب فيه.

بصعوبة هبطنا، وبقينا نصف ساعة نناشد الحشود التي أحاطت بنا حتى تسمح لنا بإنزال جثمانه دون جدوى. إطلاق النار الغزير زاد من قلق ضباط الطائرة المصريين، لأن رصاصة واحدة طائشة يمكن أن تحولها إلى كتلة من نار. قررنا بعد التشاور بيننا أن نفتح الباب الخلفي وننزل مع الكفن لأن كل تأخير سيجعل الحالة أكثر خطراً، كما أن حجم الحشود المحيطة بنا كان يتزايد، ولا توجد طريقة لإبعادهم عنا. فتحنا الباب وهبطت على السلالم القليلة وأنا أشير بيدي داعياً لإفساح المجال أمام جثمان قائدهم للهبوط.

انزلق النعش خارجاً من الباب وعلى الدرجات فتلقيناه نحن الذين كنا معه، وآخرون هرعوا

نحونا . وضعت كتفي تحت حافة النعش وسرنا نحمله بضع خطوات في أي اتجاه ، إلى أن اجتاحتني موجة بشرية هائلة فصرت أدور في مكاني وأكاد اهوي إلى الأرض حتى أحاط بي عدد من أفراد الأمن . وأخذ يبتعد عنا قليلاً ويطير وحده فوق مظلة من أطراف الأصابع .

١١

كيف سنتعامل مع ذكراه . . .

أرى ملصقات الشوارع تحمل صورته في مختلف مراحل عمره ، وتعطيه ألقابا تتقافز بين " بطل الثوابت " إلى " بطل السلام " . . . واسمع خطابات تعجز عن اقتباس مقطع من أقواله لأسباب شتى ، ولكنها تلجأ إلى التفسير والتأويل والإسقاط في التعامل مع تجربته ، لأنها تحتاج إلى شرعيته الطاغية كغطاء سياسي . . . . وفكري أيضا . لا نستطيع ، من أجلنا ومن أجله ، ومن أجلنا بدرجة اكبر ، أن نتركه يخسر بعد رحيله المعارك التي انتصر فيها خلال حياته . . . إنه أبو الواقعية الوطنية والنزعة العملية في مسار حركتنا الوطنية المعاصرة . . وبدون مباركته وحمايته ما كان بمقدور الفكر السياسي الفلسطيني أن يحقق قفزات نحو النضج والتعامل مع حقائق العصر كما فعل خلال العقود الأربعة الماضية . وهو أبو الانفتاح والتنوير ، بالرغم من جميع الشوائب التي اعترت مسيرته ، فبدون دعمه ما كنا نستطيع أن نطرح موقفاً متقدماً من حقوق المرأة ، ومن حق التفكير الحر بدون تدخل وضغوط تمارسها مؤسسات زمنية أو دينية ، ومن التعامل مع الآخر والاستعداد للتحاور المفتوح معه وصولاً إلى التعايش عندما يكف الآخر عن أن يكون جلاداً .

وهو كذلك من حدد ما الذي ينبغي أن نتجنبه ، لم يقل ذلك ، ولكن تجربته ذاتها بما احتوته من سلبيات أيضا حذرتنا من الوقوع في هذا الفخ . ولأنه أغنى تلك التجربة بانجازاتها وأخطائها ، يمكننا اليوم أن نقول ما كان يداور حوله أحيانا ، ولا يستطيع المجاهرة به لأسباب متنوعة بعضها ذاتي يخصه ، وبعضها موضوعي يفوق طاقته .

نحن نستطيع أن نتابع السير على الطريق ذاته لنحقق ما عجز عنه ، وما كان في الوقت لا يعارضه معارضة قاطعة وجذرية . . . إن حجزه لجوانب من عملية الإصلاح الداخلي أو البناء الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، كانت وراءه اعتبارات سياسية وذاتية تخصه ولا يمكن أن تبقى تلك الاعتبارات بعد رحيله . . لا أظن انه سيطالبنا بذلك فلا ينبغي أن نطالب أنفسنا نحن .

لا يمكن أن نجعل تجربته وراءنا ، تشدنا للخلف وتقيد اندفاعنا نحو إعادة بناء حياتنا السياسية

ونحو تحسين شروط مقاومتنا للاحتلال وفق أساليب وأهداف تضمن نجاح هذه المقاومة. . . ونحن، ومعنا كل التيار " العرفاتي " ذي النزعة الواقعية، التنويرية والمتقدمة، نرفض أن نفعل به ذلك.

نحن نريد لتجربته أن تعلمنا كيف نتخلص من العوائق والقيود التي تعطل تجديد بنائنا كله، حتى لو كانت تلك العوائق والقيود من صنعه، فهذه في نهاية الأمر هي روح العرفاتية الحقيقية، بواقعيتها وعمليتها، وتعاملها الجاد مع الحقائق الجديدة، ومع روح العصر.